مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

DOI: 10.54240/2318-012-001-015

قصائد لسان الدين ابن خطيب تجربة إنسانية وحقائق تاريخية: كتاب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" أنموذجا.

The poems of Lisan al-Din Ibn Khatib, a human experience and historical facts: The book Nufadhat al-Jurab fi 'Ulalet al-Ightirab a model.

اسم ولقب المؤلف: رشيدة الشانك- Echanik Rachida صص285- 303
الدرجة والعنوان المهني: باحثة في سلك الدكتوراه- جامعة ابن طفيل- القنيطرة- المغرب.
البريد الإلكتروني: rachidaechanik2016@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2021/12/14 تاريخ المراجعة: 2022/01/05... تاريخ القبول: 2022/03/04

الملخص: حين نكتب مقالا عن لسان الدين بن الخطيب الشاعر الإنسان، يصعب علينا أن نفرق في قصائده بين المؤرخ والأديب الشاعر؛ فهو الشاعر الذي سبر أغوار نفسه الحزينة، كتب قصائد عن الحزن، الغدر، ألم الفقد، وتقلب الأيام، وهو بذلك خلد واقعا مؤلما عاشه، وبين المؤرخ الذي وثق مروره وسفره ونكبة أصدقائه، وموت سلاطين ظل بجانب قبورهم ينشدهم شعرا.

الحقيقة أن ابن الخطيب برع في الاثنين، فهو عَلم من الأعلام الأندلسية، موسوعة أدبية علمية من أشهر أدباء عصره، "وكتابه نُفاضَة الجراب في عُلالةِ الاغتراب"، موضوع دراستنا لم يكن فقط كتابا لسرد ما تبقى من الماضي محفوظا في الذاكرة، بل هو كتاب شعر، والشعر فن وإحساس، هو سفر من محطة إلى أخرى، سفر الوزير الشاعر المؤرخ الغرناطي شعرا، إلى عوالم مختلفة ذاتية وموضوعية.

الكلمات المفتاحية: شعر- تاريخ- توسل- قصائد- منفى- إحساس- سفر- فاس- موت- قبر.

Abstract: *When we write an article on Lisan al-Din Ibn al-Khatib, the poet and man, it is difficult for you to differentiate in his poems between the historian and the poet-literate. He is the poet who probes the depths of his sad psyche and writes poems about sadness, treachery, the pain of loss, and the vicissitudes of days, thus immortalizing a painful reality that he lived and lived through.*

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

And between the historian who documents his passing, his travels, the calamity of his friends, and the death of sultans, he remained beside their graves, singing poetry to them.

In fact, Ibn al-Khatib excelled in both, as he is one of the Andalusian figures, a scientific literary encyclopedia of the most famous writers of his time, and "his book, Nafadat al-Jurab fi 'ulalet al-ightirab," the subject of our study was not only a book to list the rest of the past preserved in memory, but rather a book of poetry. Poetry is an art and a feeling, it is a travel from one station to another, the travel of the minister, the poet and historian Al-Gharnati in poetry, to different subjective and objective worlds.

Keywords: poetry- history- begged- Poems- Exile- Feeling- travel- Fez- death. Tomb.

مقدمة: إذا تصفحنا العديد من مصادرنا الوسيطية، نجد أنها تزخر بالعديد من القصائد الشعرية، «يسوقها المؤلف بين يدي القضية التي يريدها بالكتابة، لزيادة بيان أو زيادة برهان»[1] نموذج "المن بالإمامة" لعبد الملك بن صاحب الصلاة[2]، واستشهاد عبد الواحد المراكشي في معجبه بأكثر من سبعمائة وسبعين بيتا شعريا[3]، ثم كتاب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" لابن الخطيب موضوع دراستنا، يتضمن الكثير من الشعر بل إن أحد الباحثين يرى استكثار الوزير لسان الدين بن الخطيب من الشعر[4].

تنطوي موضوعات شعره على عدة حقائق تاريخية، حيث أشار إلى بعض المعارك، أو إنجازات معمارية لأحد السلاطين، أو استقبال بعض الوفود أو تكون استعطافا للسلطان، أو طلب استغاثة إلى الحضرة العلية، «كاستنجاد والي إشبيلية بأبيه عبد المؤمن واستعجاله في القدوم بنظم قصيدة تصف الفتنة»[5]، ولن ننس أن بعض القصائد في بعض المصادر الوسيطية ألفها السلاطين بأنفسهم، كقصيدة المأمون الموحدي (624-629/1226-1231م) بعد قطعه لرؤوس الثوار قال فيها[6]:

أهلُ الحَرابةِ والَفسَادِ من الوَرى يُعــزَوْنَ بالتشبيــهِ للذكّــارِ
فَفَسادُه فيه الصّــلاحُ لغيـــــرِهِ بِالْقطعِ وَالتَّعْلِيق فِي الْأَشْجَار

يوضح عبد الله العروي في كتابه "مفهوم التاريخ"، تشابك التاريخ بالشعر والشعر بالتاريخ، بقوله: «إن الملحمة الشعرية هي تاريخ الآلهة والأبطال العمالقة، وأن التاريخ هو ملحمة الملوك وأعوانه»[7]، ويضيف أكثر ليؤكد هذا التلاحم بأن: «التاريخ مُولد في مضمونه

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

وشكله عن الشعر الملحمي والمسرحي»[8]، وقد جمع لسان الدين ابن الخطيب(713-776هـ/ 1313-1376م) بين الأمرين: الشعر والتاريخ، كما جمع بين الوزارتين وأبدع فيهما؛ فهو العالم الموسوعي والمثقف المشارك في قضايا العصر، ولا يخلو أي كتاب له من وجود قصائد عبر فيها عن مشاعره، ووصف شعوره وإحساسه وما تعرض له من ظلم وطغيان، خاصة بعد قدومه الأخير إلى المغرب الأقصى، وتأليفه كتاب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب"[9].

تتمثل الإشكالية التي سنحاول تفكيكها والإجابة عنها في هذه الدراسة أولا: إبراز الأديب الإنسان ابن الخطيب ومحنته من خلال ما كتب من قصائد، ثانيا إلى أي حد تعتبر قصائد ابن الخطيب مصدرا أساسيا من مصادر الكتابة التاريخية؟ معتمدين في هذه الدراسة على المنهج التحليلي لكونه يتناسب مع طبيعة الموضوع المدروس من خلال تحليل مضامين قصائد ابن الخطيب سواء المتعلقة بمعاناته، أو القصائد التي نظمها خلال تجواله في أنحاء المغرب و أرَّخ بها أسماء بعض الأعلام والمدن.

1- الشاعر لسان الدين ابن الخطيب وكتابه نفاضة الجراب في علالة الإغتراب:

1-1 نكبة لسان الدين ابن الخطيب: يكفي أن تقرأ شعر لسان الدين ابن الخطيب، لتلمس كما من الاغتراب في أكثر من قصيدة، وتشعر كيف كانت أيامه، أياما ثكلها المد ونبَدها الفجر.

وَلَمَّا تنـــاهَى ورد خَدك نظـــرة وأنشـــأ في طَي القُلوب هياجا
تَشَوَّف سُـــرَّاق العيون لِقَطْفه فَكَان لَهُ شوك الغدار سياج[10]

هل كان لك يا ابن الخطيب الغرناطي سياجا يحميك من غدر الزمن وألوان السياسة!؟

يعتبر لسان الدين ابن الخطيب (لوشة 713هـ/1313م- فاس 776هـ/1376م) علم من الأعلام الأندلسية، موسوعة أدبية علمية من أشهر أدباء عصره، «ينتمي لعائلة اشتهر رجالها بالعلم والأدب والسياسة[11]، تنقل بين المغرب والأندلس سفيرا ولاجئا وسياسيا»[12]. بعد مقتل والده في معركة ثغر طريف سنة 741هـ/1340م حل محله في "الكتابة"، وتقلب في العديد من المناصب جامعا السفارة إلى الوزارة، «ينتقل إلى الملوك في مهمات، ويسافر إليهم في الأحداث الكبيرة»[13]، وفي إشارة أخرى لمكانته السياسية أشار المقري، «ألقى إليه مقاليد مملكة غرناطة»[14]، لكن سيبدأ فصل

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

التغريب والاغتراب، أو رحلة المعاناة التي ستتشابك مع محنة عامة عاش فيها المغرب أزمة سياسية معقدة أشد تعقيدا[15]، وقد مثلث فصول هذه الأزمة المحزنة في كل من غرناطة وفاس ومراكش[16]، في فترة نشطت فيها المطامح وعملت المطامع عملها، ويبدو أن ذلك كله استغل أو تم «بتدبير من ملك غرناطة محمد الغني بالله»[17]؛ فبوفاة سلطان المغرب في ربيع الآخر من عام 774هـ/1372م، فقد ابن الخطيب حاكما مخلصا يحميه من أعدائه، حيت تولي المغرب من بعده السلطان المستنصر بالله أبي أحمد بن إبراهيم، وقد ساعده الغني بالله صاحب غرناطة على الوصول إلى الحكم مشترطا عليه شرطا تسليمه ابن الخطيب يريد الفتك بوزيره السابق والانتقام ممن آووه[18].

ظل ابن الخطيب مُطاردا من طرف خصومه الأندلسيين، الذين أوقعوا بينه وبين سلطان المغرب[19]، وألصقوا به العديد من التهم قصد "التصفية"[20]، أشار إلى نقمة حساده وسماهم "بالخونة"، وقال في ذلك:

تَلَّوَنَ إِخْواني عَلَيَّ وقد جَثَتْ لَدَيَّ خُطُوبٌ جَمَّةٌ ذاتُ أَلْوَانِ
وَما كُنْتُ أدري قَبْلَ أن يَتَنَكَّرُوا بِانَّ خِوانِي كاَنَ مَجْمَعَ خَوَّانِي[21]

كما نسبوه إلى «الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام والقول بالحلول والإلحاد»[22]، بل وأمر القاضي أبي الحسن «بجمع كتبه وصب الزيت عليها، وإحراقها في حضرة غرناطة منتصف سنة 773هـ/1372م بحضور جمهور من الفقهاء»[23]. رغم توسلاته من خلال الرسائل والقصائد التي بعثهما لذوي الشأن لفك كربته؛ فقد زجّ به في السجن وقتل خنقا، وفي اليوم الثاني أخرجت جثته، ودفن في مقبرة باب المحروق أحد أبواب فاس القديمة، ثم أخرجوه في اليوم الثالث من القبر، وأشعلوا من حوله النار، وذلك في ربيع الأول من العام 776هـ/1374م[24]، ما يزال قبره قائما في باب المحروق بفاس في ضريح صغير عليه هذه العبارة، «هذا ضريح العلامة لسان الدين ابن الخطيب. فاس سنة 776هـ- 1374م»[25].

في قصيدة رثى نفسه قبل موته اخترنا منها بعض الأبيات، قصيدة ضاجة بالحزن.

لقد نِلْت مِنْ دَهْرنا رفعةً تقضَّتْ كَبرق مَضى سُرْعة
فَهيهات نَرجُو لها رَجْعة وأَصْواتنا سَكَتت دفعة
وكُنَّا نَسُوسُ أمورا عِظَاما وكُنَّا عِظاما فَصِرنا عظَاما

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

وكُنَّـا لَـدَى الملك حَلـيَ الطَّلي فـــآهـا عَليـهِ ومـــانـا خـــلا
وهَا المَوت قد صبتُ منه نصيبي فَقُل للعدا ذَهَب ابن الخَطِيب
مَضَى ابـن الخَطْيب كَمَـنْ قَبله ومَـــن بَـعْـدِه يَقْتَفـي سُبلـــه[26]

وكأنه كان عارفا بنكبته، أخذنا مقطعا من أشهر موشحاته في مدح الغني بالله محمد الخامس[27]، جادك الغيث إذا الغيث هما يا زمان الوصل بالأندلس "التي تشير إلى إحساسه بظلم جاثم على قلبه، قلب شاعر، حتى وهو مادحا، في ثنايا مدحه إحساس فظيع بالظلم:

حَكَم اللحظُ بها فاحتكَمَـا لَـم يُراقِب في ضِعـافِ الأنفـسِ
ينْصفُ المَظْلومَ ممن ظلما ويُجازي البَرَّ منها البر منها والمُسي
مَـا لِقَلْبي كُلَّما هبَّت صَبَـا عادهُ عيدٌ مـن الشوق جديـدْ
كان لـــه في اللوح مُكْتَتَبـــا قولــه إنَّ عَـذَابـي لَشَـديـــدْ
جلَبَ الهَمَّ لـه والْوَصَبـــا فَهْو للأشجـان في جُهد جَهيدْ[28]

أشار ابن خلدون الذي كان صديقاً مقرباً من ابن الخطيب وجمعت بين الرجلين أواصر الصداقة وقد ترجم كل منهما للآخر وذكره بما ينم عن خالص التقدير، وتبادل طائفة من الرسائل بينهما[29]، أنه قام بالتوسط في محنته وساعيا في خلاصه إلى نهايته المأساوية، «وكانوا قد اعتقلوه لأول استيلائهم على البلد الجديد وظفرهم به، وبعث إليه ابن الخطيب مستصرخا به متوسلا، فخاطبت في شأنه أهل الدولة، وعولت فيه منهم على ونزمار وابن ماسي، فلم تنجح تلك السعاية وقتل ابن الخطيب بمحبسه»[30]، وربما هذه النهاية هي التي جعلت ابن خلدون يبتعد عن السياسة ويعتكف في قلعة أولاد سلامة من بلاد بني توجين «فأقمت بها أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها».[31]

المفارقة الغريبة أن ابن الخطيب كان صاحب رسالة كتبها في أحوال "خَدمة الدولة ومصائرهم"[32]، وهو من خدم أعتاب دول والعارف بدواليبها، لكنه لم يكن يتوقع هذا المصير المحزن المأساوي، لا نستغرب أبدا لبعض المصادر التي عايشت نهاية بن الخطيب وغفلت عنها وتناستها مرغمة؛ فلماذا لم يتم ذكر محنته في "الحلل الموشية"؟[33]، لأنه أندلسي الدار

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

عاش في ظلال بني الأحمر، وأن الكتاب ألف تحت نفوذها؟ (يمكن أن يكون موضوعا لمقال آخر).

ترك لسان الدين ابن الخطيب تراثا غنيا متنوعا، ومؤلفاته تقع في نحو ستين كتابا منها فقط للتذكير :كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، الإحاطة في أخبار غرناطة بأجزائه، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب التي نشتغل عليها في هذه الدراسة، (الجزء الثاني)، وهو في أربعة أسفار ومن أحسن تآليفه[34]، وقد استفاد من هذا الكتاب المتأخرون ونقلوا منه بعض أجزائه، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب[35]، وموشحات لسان الدين ابن الخطيب المتفرقة في العديد من المصادر[36]، لها شهرة واسعة بل «قد انتهت إليه رياسة هذا الفن»[37] بل عده بعض الدارسين «من مشاهير الوشاحين الأندلسيين»[38]، وسمّاه ابن خلدون «شاعر المغرب والأندلس لعصره»[39].

وأشهر موشحاته، الموشحة التي مطلعها[40]:

جَادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمان الوَصْل بالأنــدلس
لــم يكـن وصْـلُكَ إلا حلمـا في الكرى أو خِلْسة المُختلس
إذْ يقود الدهرُ أشتاتَ المـــنى يَنْقُلُ الخَطْوَ على ما يَرسِمُ.

1.2 **نُفاضة الجراب في عُلالة الإغتراب (الحدث نثرا وشعرا):**[41] يُعد كتاب نُفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب، (الجزء الثاني) لابن الخطيب الذي ألفه حسب بعض الدارسين[42]، ليكون بمثابة مذكرات شخصية عن المدة التي قضاها منفيا في دولة بني مرين بالعدوة أي المغرب الأقصى بعد صرفه عن الأندلس واستقراره به قبيل وفاته بسنوات قليلة، «ولهذا سمي نُفاضة الجراب»[43]، يتناول هذا الكتاب حياة ابن الخطيب في المغرب حين نفي إليه مع سلطانه سنة 760هـ/1358م، هذا المُؤَلف ومؤلفات أخرى كما يرى الباحث بنشقرون[44]، تتصل بالبيئة المغربية اتصالا مباشرا إذ أنها تستمد الخام منها، وتعكس مظاهر التفاعل الذي تم بين ابن الخطيب وهذه البيئة التي آوته واحتضنته؛ فقد فضل الاستقرار بمدينة سلا وفيها شعر بالأمان والهدوء؛ فألف عددا كبيرا من المؤلفات التاريخية والأدبية[45]، وقد

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

علق هو بنفسه على إقامته؛ «فجنحتُ إلى السكون بمدينة سلا؛ حيث ضربت الحرمة رواقها، وأقامت الحسنة بسبب الضريح (ضريح أبي الحسن المريني)[46].

سجل في كتابه ما رآه من «الآثار الباقية بجمع أخبارها»[47]، وذلك بوصفه للعديد من المناطق التي مر منها: كزيارته جبل هنتاتة عام 761هـ/1306م، خصص له فصلا كاملا سمّاه: "فصل في ذكر جبل هنتاتة"[48]، مر بأغمات، مراكش، آسفي، تامسا، أنفا، دكالة، وانتهى به المطاف بسلا[49]، وهناك استقر في ضاحيتها المعروفة باسم شالة[50]، حسب ابن خلدون فهو المسافر «الذي استأنس واستأذن (ابن الخطيب) السلطان في التحول إلى جهات مراكش، والوقوف على آثار المُلك بها فأذن له، وكتب إلى العمال بإتحافه؛ فتبادروا في ذلك وحصل منه على حظ السلطان»[51].

لم يُكْتب كتاب نفاضة الجراب فقط لسرد ما تبقى من الماضي محفوظا في الذاكرة[52]، بل هو كذلك كتاب شعر، «والشعر ذاكرة حاملة لتاريخ الشعوب وأيامها وأخبارها وملاحمها»[53]، سفر من محطة إلى أخرى، سفر الوزير الشاعر المؤرخ.

كَنْ مِنَ صروفِ الرَّدَى عَلى حَذَرٍ لا يقبل الدَّهْرُ عُذْرَ مُعْتَذِرِ
وَلاَ تُعَـــوِّل فِيـــهِ عـلى دَعـــةٍ فأنت في قُلْعَةٍ وفي سَفَـرِ[55]

أخذ عنه المؤرخون المتأخرون أمثال المقري وابن القاضي والناصري السلاوي وابن غازي العثماني، إذ استفادوا من هذا الكتاب، ونقلوا منه بعض أجزائه[56]، كتاب أرخ للمغرب الأقصى في العهد المريني في الفترة بين 773- 776هـ/1371-1374م، غني بما حمله من معلومات عن العديد من المناطق التي زارها داخل المغرب، وصفها وترجم لعلمائها في شالة، مراكش، آنفا، القاهرة المرينية (المغربية)[57]، عن مدينة باديس، ومدينة غساسة.

2- **قصائد ابن الخطيب تجربة إنسانية وحقائق تاريخية:**

1.2- **قصائد ابن الخطيب حرث موجع في الحياة** : لا بد من التذكير بما كتبه العلامة ابن خلدون (في فضل الوزير ابن الخطيب)، وما نسجه عنه كذلك المقري في "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" حول شعر وشاعرية ابن الخطيب.

اعترف ابن خلدون بمكانته الكبيرة، وهو العارف به عن قرب فقال: «كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب لا يساجل مداه ولا يُهتَدى فيما

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

بمثل هُدَاه»[58]، وفي إشارة أخرى «وبلغ من الشعر والترسيل حيث لا يُجارى فيهما»[59]، أما أحمد المقري فقد شبّهه بالطائر الصيت، «الوزير الشهير الطائر الصيت، المَثَل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها»، وقد عقب على ذلك بقوله:

تَصَانِيفُ الوَزِيرِ ابْنِ الخَطِيبِ أَلَذُّ مِنَ الصِّبَا الغَضِّ الرَّطِيبِ
فَأَيَّةُ رَاحَةٍ وَنَعِيمِ عَيْشٍ تُوَازِي كُتْبَهُ أَمْ أَيُّ طِيبِ[60]

من خلال الأشعار المبثوثة بين ثنايا الكتاب استطاع لسان الدين ابن الخطيب أن يدون تجربته الإنسانية، معاناته، تاريخه وتاريخ أوطان، (غرناطة- المغرب)، انتقل إليها مرة برغبته ومرة عنوة:

مولايَ هاضَني الزَّمَان وسامني جُورا وأنت هُو الإمام الأَعدلُ
أَنْحى عَلى وَفْري وَرَوَّع مأمني ظَلَما وحمَّلَني الذي لا يُحْمَلُ.

كان الشعر الكوة التي سمح لنا ابن الخطيب بالعبور إليه، العبور إلى الإنسان الشاعر، قصائده صادرة من الداخل من غور الذات السحيق، رسم انفعالاته شعرا، انفعالات هي جزْر مد كحركات بحر، قصائده ليست مجرد تمكن من اللغة والنحو والبلاغة، قصائده هي حرث موجع في الحياة.

شكل هاجس الخوف من المجهول عنده والشعور النفسي بالاغتراب[61]، دافعا لمدح السلاطين في كل من المغرب والأندلس، قال في إحدى قصائده مادحا[62]:

وَطَاعتك العُظْمَى بِشَارَةُ رَحْمةٍ وعِصْيانُك المَحْذور نَزْغَةُ شَيْطَانِ
وَحُبُّكَ عنوان السَّعَادَةِ والرِّضَا ويُعْرَفُ مِقْدَارُ الكِتاب بِعُنوانِ
مَحَبَّتُهُ فَرْضٌ عَلى كلِّ مُسْلِمٍ وطاعَتُهُ في الله عُقْدَةُ إيمَانِ

وذلك لكسب ودهم وضمان حمايتهم، وقد استأثر سلاطين المغرب بني مرين بكثير من مدائحه، تودد إليهم بحثا عن الاطمئنان والأمان غافلا أو متغافلا أن لا ثقة في السياسة ولا ثقة في من يمشي في ركابها:

ومِثْلُك من يَرْعى الدَّخِيل ومن دَعا بآل مرين جاءه العزُّ والنَّصر[63]

ليكونوا له درعا واقيا من تقلبات أوراق السياسة التي تتلون كل فترة وأخرى قائلا:[64]

ضَاق عن وَجْدي بكم رحبُ الفضا لا أُبالي شَرقه من غربه

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

فأعيـــدوا عَهْد أُنـــْس قـــد مضى نقِدوا عانِيَكُمْ من كَرْبِه.

الحديث عن قصائد واسطة عقد "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب"، هو الحديث عن تجربته الإنسانية المؤلمة، عن علاقاته السياسية المتشابكة عن الحساد والوشاة:

يَا دَائِمَ الحِقْدِ والفَظَاظَةِ لا يَفْرِقُ مَابَيْنَ ظَالِمٍ وَبـــرِي

يَا كمدَ اللَّوْن يَنْطَفي كَمَدا مِن حَسَدٍ يَسْتَطير بالشَّرَرِ.

فلم يكن في قصائده سياسيا أو مؤرخا بل كان فقط إنسانا حنّ لوطنه وحياته السابقة:

كتب لأن الكتابة كما قال "كافكا": هي انفتاح جرح ما.

كتب للأيادي الملطخة ببؤس حرب وغدر.

كتب للذين مضوا دون أن يغادروا.

كتب لهؤلاء الذين تحرشوا بالذاكرة .

كتب عن وجع تجدد وتمدد.

كتب لموت كان أكبر من قصيدة على قبر المعتمد بن عباد، أو على ضريح أبي الحسن المريني.

قصائد ابن الخطيب حيّة في ذاكرة الناس وقلوبهم، نلمس ابتكارا في المعاني واختيارا دقيقا للألفاظ، وبذلك استطاع أن يحصد في عصره لقب شاعر الأندلس والمغرب[65]، وقد أشار إلى فضل قصائده حين قال: «وأنا أجلب القصيدة على جهة الإحْمَاص، (المؤانسة) والتنشيط إذ فائدتها مع تمام الأمر وإحقاقه حاصلة لم ارتاد الآداب وكلف بالفضائل، وتشوف إلى الأنحاء البلاغية والمقاصد»[66].

القصائد التي لامسناها في هذه الدراسة، فيها الكثير من التودد، الاستعطاف والرجاء، أبعدت عن شاعرنا أسلوب المؤرخ المحترف الجامد، وضمت العديد من الأحداث والمواقف وحملت الكثير من التقلبات والهواجس في نفسية شاعرنا.

أولى قصائد ابن الخطيب في نفاضة الجراب، قصيدة في مدح شيخ هنتاتة الذي أكرم وفادته[67]، وهو عامر بن محمد بن علي[68] من قبائل مصمودة، من أقوى شخصيات الدولة المرينية في فترة حكم السلطان أبي الحسن المريني (731-749هـ/1330-1348م)، وابنه

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

السلطان أبي عنان فارس(749-759هـ/1348-1357م)، فقد كان جبل "هنتاتة" بالنسبة لابن الخطيب الملاذ الآمن، "يعصم من الطوفان ويواصل أمنه بين النوم والأجفان[69]

إذا جبل التوحيد أصبح فارغـا فخيم قرير العين في دار عامر

والله ما تبلوه من سعد وجهة والله ما تلقـاه من يمن طائر[70]

وقد أسهب ابن الخطيب في وصف جبل هنتاتة، أثناء رحلته المسماة "فصل في ذكر جبل هنتاتة"، وصف ساكنته، طعامهم، وسمرهم، وخبر لجوء السلطان أمير المسلمين أبي الحسن، وما تعرض له من خذلان كبير، «وتبرى أثيره عميد العساكر منه»[71] خذلان شرب كأس مرارته هو الأخر خبر تقلب الزمن وتغير الحال، أليس هو الحامل لذاكرة مؤرخ وله مثال في ذلك محنة المعتمد ابن عباد الأمير المنفي، وما آل إليه وعبر عنه بألم وحزن كبيرين، (نكبة بني عباد)[72]، **قبح الدهر فماذا صنعا...كلما أعطى نفيسا نزعا**، كذلك ما وثقه أبو البقاء الرندي، (601هـ-668هـ/1204-1269م) الحكيم الشاعر والقاضي الأندلسي عن تقلب الأحوال، ونسج بحكمته أجمل القصائد لمن سره زمن ساءته أزمان[73].

لِكُـلِّ شَـيءٍ إِذا مـا تَـمّ نُقصانُ فَلا يُغَـرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِـيَ الأُمُـورُ كَما شاهَـدتُها دُوَلٌ مَن سَـرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمـانُ

وَهَـذِهِ الدارُ لا تُبقـي عَلى أَحَـدٍ وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شـانُ

حمل ابن الخطيب في داخله ذلك الشعور بالخوف الكبير وأن الآتي فيه كثير من مفاجآت الرهيبة، ظهر ذلك في وصيته إلى أولاده بالحرص من غدر الزمان، «ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد فلا يستهلكه فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار»[74]، كان يتوجس ويتطير من أي حدث عارض، وهذا ما لمسناه حين تخلف شيخ هنتاتة، «عن المجالسة والمؤاكلة معتذرا عن ألم مانع، نغص لدينا النعيم، وكدر الشرب تطيرا من وداعنا أو رهين شكاية»[75]، هذا الخوف من المجهول عبر عنه في قصيدته التي انشدها يوم زيارة محل وفاة السلطان أبي الحسن المريني[76].

الله أي قَبِيلة تَرَكت لهـا النُـــضَ اء دَعْوى الفخر يوم الفخارِ

نَصَرتْ أميـر المؤمنيــن ومُلْكَـــه قـد أَسلمته عَزائِم الأنصْارِ

وتَخاذل الجَيْش اللُّهام وأَصبح ال أبْطـال بين تقاعـد وفِـرارِ

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

كُفِـرت صنائعُـه فيمّـمَ دارهـا مستظهـراً مِنها بِعـزّ جِـوار
قَـدْ كَانَ يَأْمل أن يكافئ بَعضَ ما أَوْلَوْه لولا قاطـع الأعْمـارِ

وكان "يأمل"، حتى ابن الخطيب كان يأمل أن يُقَدّر أكثر وأن يكون أينما ارتحل بين العدوتين محل تقدير ومحبة، بعيدا عن الوشاة والمتآمرين والحساد، الذين نالوا منه في الأخير، ورسموا خطة سير نهايته ونكبته الموجعة: حبس، خنق وحرق.

أَصْبَحتُ في زَغَبٍ كَأفْراخِ القَطَـا والمـاءُ شرطُ حياتِهم والسنبلُ
فإذا سَمَوتُ لقَصْدِهِم لم أَسْتطعْ **وإذا اعتذرتُ إليهمُ لم يَقْبَلوا**[77]

انتقل في رحلته إلى مدينة أغمات، واعتبر زيارته لقبر المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وأحد ملوك الطوائف الذي نفاه المرابطون[78] من أولى المهات[79] الغريب أن ذاكرة شاعرنا ابن الخطيب مشحونة بأخبار من كانت نهاية حياتهم موجعة، رثاه بقصيدة من أعذب القصائد، قصيدة لونها بكل أحاسيس الفقد، كلمات من قلب عليل إلا من خفق الوفاء، قصيدة لمن مروا وتركوا وشما وألف ذكرى، كلمات عزفت وتر سراب الحياة، وسراب متعها وأن الموت أول اليقين قصيدة مطلعها:

قَـدْ زُرتُ قَبْـرك عـن طَـوع بِأغْمات رَأْيت ذَلك مِـنْ أوْلى المهماتِ
لمَ لا أَزورك يا أَنْدى المُلوك طَوعا يداً ويـا سِراجَ الليالي المدْلهمَّات
أنـاف قـبـرك في هَضْـبٍ يُـميـزه فتنتحيـه حَفِيَّـات التحياتِ
وأنت مـولىً تَخَطَّـى الدَّهْـر مصرعه إلى حَياتِي لجادت فيها أبياتي
كَرُمْتَ حَيًّـا ومَيّتـاً واشتهـرت عـلا فَأَنْتَ سُلْطان أحياءِ وأمواتِ[80]

وفي قصيدة أخرى توسل، استعطف، تودّد ورغب للسلطان أبي سالم المريني (760-762هـ/ 1358-1360م)، «والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم (....) بكتاب كريم يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي (....)، وإذا تم هذا الغرض، ولاشك في إتمامه، تقع صدقتكم على القبر الكريم»، قصيدة من البحر الكامل[81]

مَـوْلاي هَـا أنَـا بِجـوار أبيكـا فابْدل مِنَ البِرّ المقدر فيكا
اسْمعْهُ ما يُرضيه مِنْ تَحْتِ الثرى والله يُسْمِعُك مَـا يُرْضِيكَ
واجْبـر بِجَبـري قَلْبَـهُ تَنَـل المنى وتطالع الفتح المبين وشيكا

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

وإذا قضيت حـوائـجي وأريـتـني أَمَـلاً فربك مـا أردت يريكا[82]

وله قصيدة شبيه بهذا المحتوى "التودد والاستعطاف" على منوال قصيدة أبي حنيفة النعمان[83] مطلعها:

يـا سَيِّدَ السَّادات جِئْتكَ قَاصِداً أرْجـو رضَـاكَ واحتمي بِجِمـاك

أَنا الطَّامِع بالجودِ مِنْكَ ولم يكن لابْن الخَطيب مَنَ الأَنام سِواكا

هل كان هذا التوسّل والاستعطاف المرهف للملوك أمرا سهلا بالنسبة لابن الخطيب؟ أليس له عذرا؟ وهو السفير الملقب بذي الوزارتين، (القلم والسيف)، ويقال له (ذو العمرين) لاشتغاله بالتصنيف في ليله، وبتدبير المملكة في نهاره.

أجاب قائلا:

أيـا راكبَ البَحْر الأجاج مُخَاطِراً تَقَدَّم باسم الله مرْسَاك ومجراك

وبَلِّـغ أمَـانَات المشَـوق ولاَ تَقـل ترحَّل مختـارا لَعَـلَّ لَـهُ عـذرا[84]

له عذرا حين زاد الحنين والشوق الجارف لغرناطة:

أيـامُ قُربِـكِ عِنْـدي مَـا لَهـا ثَمَنُ لكنَّني صَدَّني عن قُرْبِكِ الزمنُ

حططت بعدك يا أهلي ويا وطني رَحْلَ الغريب فلا أَهلٌ ولا وَطَنُ

واللهِ ما سَكَنَتْ نفسي إلى أحـدٍ يوما ولا راقَ عَيْني منظرٌ حَسنُ[85]

يقول الناصري في محنته الأولى التي قدم فيها هو والغني بالله بن الأحمر في السادس من محرم فاتح سنة إحدى وستين وسبعمائة: إنه «وقف وانشد السلطان أبا سالم، **واستعطف واسترحم بما بكى الناس شفقة له ورحمة**»[86]، وهو أشار لذلك بقوله:

بكينـا على النهـر الشروب عشية فعادا أجاجا بعدنا ذلك النهر.

كيف هو مذاق بكاء وزير صاحب قلم، شاعر، مؤرخ، طبيب، وجغرافي؟

شاعر هوى نجمه بعد علوه.[87]

أكيد ألم مرارته أكبر أعمق وأصعب، خاصة من عاش في النعيم وزال عنه بعد ذلك.

بكاء شاعر غادر وطنه مرغما، واكتوى بنار الغربة، و(قد يطول سفره من غير عودة)، شعر بحسرة وحنين على نفسه وعلى بلده الذي فارقه؛ فهو الشاعر المغترب الذي سُلب منه كل شيء، هرب إلى حيث الأمن والاستقرار، تاركا ممتلكاته وذكرياته[88]، ولكن حتى بعد فراره

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

من وطنه غرناطة، ظل فريسة الألم، عرضة للمكائد، وتآمر الحساد والوشاة الذين أوقعوا به، يقول في قصيدته[89]:

مولايَ هاضَني الزَّمَـان وسـامني جُـورا وأنت هُو الإمام الأَعدلُ
أَنْـــى عَلى وَفْـري وَرَوَّع مـأمني **ظَلَمـا وحمَّلَني الذي لا يُحْمَلُ**
ورَمَى بِنَا البحرُ المحيط ولو درى مِنْ دونه مرمًى لقالَ لنا ارحلوا
إِنَّـــا قُتلنا بالنوى سِيَّـانِ مَـنْ يُجْلَى عن الأَوْطان أو من يُقْتَل[90]
وأنـا الَّذي مـا لي إليكَ وسيلةٌ أُدْلي بهـا لِـعُـلاَكَ أو أتَـوسَّـل
مـاَ لِي ولا لِبَنِـيَّ غيـرك رَحْمَةٌ لكن عُـذري واضـحٌ لا يُجْهـل

جرعات الألم والفقد في حياة لسان الدين ابن الخطيب كثيرة، نلمسها في قصيدة مؤثرة أخرى في تأبين زوجته وأم أولاده، التي ماتت ودفنت بمدينة سلا، «في السادس لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة طرقني ما كدّر شربي ونغّص عيشي من وفاة أم الولد، (...) في بلد الغربة، وتحت سرادق الوحشة، (...)؛ فجلت عليها حسرتي واشتد جزعي، (...)؛ فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا، وصدر عني مما كتبت على ضريحها[91]:

رَوع بَـالِي وهَـاج بَلْـبَـالي وسامني الثُّكْل بَعد إقبالِ
ذخيرتـي حِيـن خَـانَني زَمنـي وعُدَّتي في اشتداد أَهْوَال
حَفَرتُ في دَارِي الضرِيـح لَهـا تعللا بالمُحَال في الحضال
فانْتَظِرِينـي فَالشَّـوق يقلقني ويقتضي سرعتي واعجالي
ومهدي لي لَدَيـك مَضْطجعـا فَعَنْ قَرِيبٍ يكون ترحالي».

خلد بهذه الأبيات زوجته التي يبدو أنه كان يكن لها حبا كبيرا عميقا، لدرجة دفنها في داره بالقرب منه، لا في المقابر. هذا الحزن على فقدها الممزوج بالكثير من الوفاء لحب لم ينقطع رغم بطش الموت، (حفرت في داري الضريح)، بل ظلّ بجانبه (القبر)، يحرسه وينتظر لقاءها في عالم آخر، (فانتظريني فالشوق)، في عالم نقي بعيد عن هذا العالم السفلي، بعيد عن الحساد والمتآمرين، وبعيد عن عالم السياسة الذي عذب روحة، وأسكن فيها الكثير من الحزن والخوف وعدم الآمان.

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

بقصائده خلد شاعريته الكبيرة التي أكدها صديقه ابن خلدون[92]: «وبلغ في الشعر والترسل، حيث لا يجازي فيهما"، بل هناك من أنعم عليه بوصف أنه شاعر الدنيا وكاتب الأرض إلى يوم العرض»[93].

2.2- **قصائد ابن الخطيب مصدرا أساسيا من مصادر الكتابة التاريخية :** أشار الدكتور أحمد مختار العبادي في مقدمته لكتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب أن الكتاب مذكرات شخصية للمؤلف (أشرنا لذلك في الفقرة الأولى)، وبكل تأكيد مصدرا تاريخيا غنيا لما تضمنه من حقائق تاريخية؛ فقد دوَّن ابن الخطيب ما رآه في رحلته من منشآت ومؤسسات دينية واجتماعية، كالمساجد والمدارس والزوايا[94]، وأسماء من لقي من «أولي الدين والدنيا»، حيث زار أحد أولياء الله الصالحين وعباده المقربين في طريقه لمدينة آسفي الساحلية سجل:

وكل أخ مفارقــه أخــوه لعمر أبيك إلى الفرقدان[95]

وأشار كذلك إلى أسماء مجموعة من كبار العلماء والأدباء[96] الذين خاطبهم بالقصائد والرسائل، ومن العلماء الذين لقيهم: أبا ثابت عامر بن محمد، وأخيه[97]، والوزير عماد الدولة أبي على عمر بن عبد الله الذي عدد مناقبه[98]:

مَـا أَسْعَــدَ المُلْك الذي سُسْتَهُ يا عمر العدل، وما أَسْعَدك

وصاحب خطة العلامة الفقيه أبا سعيد ابن رُشَيْد:

فَكُنْ حَيث اقْتَضَاه بك اعتدادي وَشِدْ لي مِن كَريم الرعى مبنى

فَــتَى الفِتْيــان أنْت بِــلا نــزاع وَمِثْلي مَــنْ وفَّى بيــد وَ أثْنــا[99]

وحفيد الولي أبي محمد صالح (أشهر أولياء مدينة أسفي) أحمد بن يوسف[100]

يَــا حَفِيد الوليّ يَــا وَارِثَ الفَخْر الذَّي نَــال في مقَامِ وحــالِ

لَك يَــا أحمدَ بن يوسُف جُبنــا كل قفر يعي أَكُفَّ الرِّحَالَ

إضافة إلى ذلك، أرّخت قصائد نفاضة الجراب لأسماء مدن منها ما استمر مثل مكناس وآسفي وسلا ومراكش، ومنها ما اندثر كمدن تامسنا وزقندر، أنفا، شالة وحصن القاهرة[101]. نقل مؤرخنا ما لاحظه أثناء مروره أو استقراره بهذه المدن، ووصف الحالة التي أصبحت

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

عليها بعد توالي الحروب والفتن، وتراجع السلطة المرينية التي ضعفت قدرتها على ضبط البلاد.

أشار لمدينة "**مكناس**" حيث «فسدت طريقها، وسدّت السبل إليها» بسبب فوضى الأعراب:

مَكْناسةُ حُشِرَتْ بها زُمَــرُ العـدا فمدى بريدٍ فيه ألفُ مَريدِ
مــن واصـل للجـوع لا لرياضـة أو لابس للصوف غير مُريد[102]

كذلك أشار إلى مدينة كانت غنية بمعدن الفضة أثناء حديثه شعرا عن بعض أعلامها الشيخ الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الزقندري، المنسوب لمدينة "**زقندر**"، وهي من مدن معدن (الفضة) المغربية المندثرة:

سَأَلْتُك عبد الله إيضاحَ مشكل وأَنْتَ لِكَشْف المُعْضِلات بمرصَد
زَقَنْدَرُ قالــوا عنه مَعْدَن فضة فَمَا بالُــه أَبــداك نُــدرة عَسْجَدِ[103]

وعندما توسط بسيط "**تامسنا**" على البحر المحيط، وهي من المدن التي طمست معالمها الآن أنشد:

كَأَنَّــا بِتامَسْنا نَجوس خِلالَها وممدودَهَا فِي سَيْرنا لَيْس يقْصر
مَراكِبُ في البَحْر المُحِيط تخبّطت ولا جِهَــة تَـدْري ولاَ البَــر يبصر

أشار لسان الدين بن الخطيب كذلك بعبارة وافية إلى ما تبقى من آثار بعض المناطق بعد تخريبها، مثل منطقة جبل هنتاتة)، نتيجة الصراع الموحدي المريني، «توجهنا إلى الجبل نساير الجهة ونشاهد الآثار»[104]:

هَدَّتْ بناءهــا في سَبيل وَفائِهــا فكأنهــا صــرعى بِغَيْر عُقــار
لمــا توعدهــا على المجد العِدَا رَضيت بِعَيْثِ النار لا بالعار

وقال في وصف ما حلّ بمدينة قصور وقصبة "**مراكش**": «واعتبر ما صار إليه حالها بعد الموحدين» قال:[105]

بَلدُ قَــدْ عــزاه صَــرف اللَّيَالي وأَبــاحَ المصــون مِنْــه مبيــح
فَالَّذي خَــرَّ مَــن بَنــاهَ قتيل والذي خَــرَّ مِنْــه بعض جَريح
أعجمت منــه أربــعٌ ورســوم كَان قدما بِها اللِّسَان الفَصِيح

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

كَـمْ مَعَـان غَابَت بِتِلك المغـاني وجَمَال أَخفـــاه ذاك الضَرِيح
سَاكن الدار روحُها كَيْفَ يَبْقَى جسد بَعْدَ مـا تـــولى الروح؟

وفي فصل "في ذكر العودة إلى مدينة سلا"، أشار لمدينة **شالة**، وابن الخطيب من قلة الذين ذكروا اسم هذه المدينة[106]، "ثم كان الإرتحال إلى التربة المولوية المحترمة بشالة؛ فألقيت بها البرك، وحَطت الرِّحل، وفصلت الخطة[107]، (الكامل)[108]:

مَوْلايَ مَـا اسْتَأْثَرتُ عَنْكَ بِمُهْجتي أَنَّـى وَمُهْجَتِي التي تَفْدِيكَا
لَكِـنْ رأيتُ جَنَـابَ شَلَّـةَ مَغْنمًـا يُضْفِى عَلَيَّ العِزَّ في ناديكا

تكمن أهمية الأشعار المبثوثة بين ثنايا "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" فيما حملته لنا من حقائق تاريخية هامة عن بعض المدن المغربية؛ فابن الخطيب توقف وعاين، وتحسّر على الحالة التي وصلت إليها بعضها مثل مكناس ومراكش، كما أخبرنا عن أسماء أعلام وأولياء ووزراء وشيوخ خلّدهم في قصائده، الأمر الذي أهل هذه القصائد لتكون مصدرا أساسيا من مصادر الكتابة التاريخية.

تحليل النتائج: كُتُب لسان الدين ابن الخطيب التاريخية هي في نفس الوقت كتب أدبية مليئة بالشعر والقصائد النفيسة؛ فطبيعته الأدبية تفرض نفسها عليه في كل عمل يقوم به، وبذلك أبان على علو كعبه في تطويع الأدب للسياسة والسياسة للأدب، وكتاب نفاضة الجراب الذي ألفه في منفاه في مدينة سلا، مليء بالعديد من القصائد عن تجربته الإنسانية الغنية والمؤلمة، وعما لاحظه أثناء مروره أو استقراره بعدة مدن مغربية، ووصفه للحالة التي أصبحت عليها بعد توالي الحروب، وتراجع السلطة المرينية التي ضعفت قدرتها على ضبط البلاد.

الخاتمة: اغتراب ابن الخطيب وارتحاله عن وطنه، وإحساسه بالحنين إليه وتعلقه به، جعل قصائده قصائد ألم، ولوم للحساد والوشاة، هي إخبار بما حل به من ظلم وغدر. قصائده تعبر عن مشاعره وتعانق عواطفه، وتصور نزعاته النفسية، وما تغلغل في الصدر من آمال وخيبة، وهي كذلك أرخت لما سجله أثناء تجواله بين مدن المغرب من حقائق تاريخية؛ فحضور الشعر في كتاب "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" يكتسي دلالة وظيفية هدفها إثارة الأحاسيس والعطف في نفسية المتلقي، وفي نفس الوقت شعره ذاكرة حاملة

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

لتاريخ فترة صعبة عاشها ابن الخطيب بين المغرب والأندلس، قصائده وديعة ناطقة حية، دائما مفتوحة على قراءات متجددة باستمرار.

الهوامش:

1- عبد الرحيم حزل- الشعر المفترى عليه بأيدي المؤرخين والمحققين:« التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات» نموذجا-مجلة تاريخ المغرب- العدد الحادي عشر- مؤسسة درا ميديا الرباط -يوليوز/دجنبر 2021م-ص181.

2- عبد الملك بن صاحب الصلاة- المن بالإمامة- تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين- تحقيق عبد الهادي التازي- دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان-الطبعة الثالثة 1987م-ص48-49-76-80-81.

3- عبد الواحد المراكشي **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**- تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب-دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة-1994م- ص.28. مولود عشاق، تاريخ المغرب وإشكالية المصادر، مطابع الرباط، نت2012م

4- مولود عشاق، التاريخ المغرب وإشكالية المصادر، مطابع الرباط نت، 2016م، ص63

5- عبد الملك بن صاحب الصلاة-المن بالإمامة-ص75-76----6- مجهول الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية – حققه-سهيل زكار-عبد القادر زمامة-نشر وتوزيع-دار الرشاد الحديثة-الدار البيضاء-الطبعة الأولى-1399هـ/1979م-ص166

7- العروي عبد الله - **مفهوم التاريخ**- ج1- ص48.----8 - نفس المرجع- ص48-49-50.

9-**لسان الدين بن الخطيب** السلماني- **نفاضة الجراب في علالة الإغتراب**- نشر وتعليق أحمد المختار العبادي- مراجعة عبد العزيز الأهواني- دار النشر المغربية الدار بيضاء 1985م.

10-ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني-جمع وتحقيق محمد مفتاح– دار الثقافة الدار البيضاء المجلد الأول- الطبعة الأولى 1989م - ص215- كما حَقَّقه محمد الشريف قاهر، ونشر في الجزائر عام 1975م.

11-أحمد بن محمد المقري- **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب** -ج5، تحقيق أحسان عباس- دار صادر بيروت 1968م-ص 8_أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض- تحقيق سعيد أحمد أعراب-ومحمد بن تاويت – الناشر صندوق إحياء التراث الإسلامي بين الحكومة المغربية وحكومة الإمارات العربية المتحدة- الرباط 1978، ص186.

12- عبد الحليم حسين الهروط- موشحات لسان الدين بن الخطيب- دار جرير للنشر والتوزيع- عمان- الطبعة الثانية 2012م-1433هـ-ص.9---

- 13- مصطفى الشكعة -المغرب والأندلس-دار الكتاب اللبناني- بيروت-1399هـ/1978م. ص321.

14- لسان الدين بن الخطيب- اللمحة البدرية في الدولة النصرية-تحقيق:محمد زينهم- دار الثقافة والنشر القاهرة-1425هـ/2004م.ص104.

15-لسان الدين بن الخطيب الاحاطة في أخبار غرناطة ج2، القاهرة .ص12-ابن خلدون، العبر، ج7، ص.306-شاكر الفحام-لسان الدين بن الخطيب-مجلة الثقافة-دمشق-العدد78-1990م-ص.5

16- ابن خلدون، العبر **وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1421هـ/2000م، ج7، ص.

17- مجهول **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** - ص5-6-7-8 .----18 -محمد ابن شقرون- دور المغرب الأقصى في توحيد الثقافة بين دول المغرب العربي- مجلة الثقافة المغربية ع 1- يناير- فبراير 1970.----19-ابن خلدون-العبر-ج7-صص440إلى 446.

20-المقري، نفح الطيب، ج5ص، 105.----21 -. ابن الخطيب- نفاضة الجراب- ص100----22 -المقري- نفح الطيب-ج5-ص11.

23-محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1990م/1441هـ، ص104.----24- أحمد بن خالد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – تحقيق وتعليق- جعفر الناصري ومحمد الناصري-ج4-دار الكتاب-الدار البيضاء1418هـ/1997م-ص.64

25 - ابن خلدون، العبر، ج7، ص.638-خالد الناصري- الاستقصا -ج4-صص 62إلى64- ابن الخطيب-نفاضة الجراب-الإحالة رقم 1-ص265---

-26-المقري - نفح الطيب-ج5-صص113-115.

27 - عبد الحليم حسن الهروط- موشحات لسان الدين بن الخطيب-دار الجرير للنشر والتوزيع الأردن-الط2- 2012- ص142.----28 -ابن خلدون-المقدمة- ص649-650-651.----29-عنان محمد عبد الله–بين ابن خلدون وابن الخطيب- مجلة العربي-العدد 85-الكويت-وزارة الإرشاد-1385هـ/1965م-ص21.----30- ابن خلدون، العبر- ج7- ص.638.----31-المصدر نفسه-ص.638-639

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

32-محمد البركة-سعيد بن حمادة- السياسة السلطانية عند لسان الدين ابن الخطيب من خلال رسالته في أحوال خَدَمة الدولة ومصائرهم- دار إفريقيا للنشر الدار البيضاء- 2013م.----33 -مجهول **الحلل الموشية**- ص 181 .

34- أحمد بن محمد المقري- **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**-ص189.----35- لسان الدين بن الخطيب- **ريحانة الكتاب ونّجعة المنتاب**-ج1تحقيق محمد عبد الله عنان، المطبعة العربية الحديثة-القاهرة، الطبعة الأولى- 1400هـ/1980م.

36- تم جمع أشهر "موشحات لسان الدين ابن الخطيب" في هذا المرجع (دراسة وجمع)، عبد الحليم حسين الهروط- دار جرير للنشر والتوزيع- عمان الط2- 2012م-1433هـ .----37- وائل أبو صالح، **الجواري في الأندلس**، منشورات دار القلم-رام الله-1985- ص.79.----38- جودت الركابي، **في الأدب الأندلسي**، دار المعارف القاهرة- الطبعة الثانية 1966م-ص307 .

39- ابن خلدون- المقدمة-ص.649.----40 - عبد الحليم حسين الهروط- موشحات لسان الدين ابن الخطيب - ص23.

41- محمد بوذينة- **أشهر الموشحات ومعارضتها**- منشورات محمد بوذينة - الحمامات تونس- الطبعة الأولى 1944م- ص46.

42- مقدمة احمد مختار العبادي- محقق **نفاضة الجراب**، ص4.----43- المصدر نفسه - **ص4 .**

44- رضوان الرحالي - **جماليات الغرض الشعري مقاربة موضوعاتية لشعر الشريف الرضي**- سلسلة دراسات وأبحاث -5- مراكش- الطبعة الأولى -2019م- ص9.

45-محمد الشريف قاهر- لسان الدين ابن الخطيب وتراثه الفكري-مجلة الأصالة-العدد 26-الجزائر-وزارة التعليم والشؤون الدينية-1395هـ/1975م-ص234.

46- لسان الدين بن الخطيب السلماني -أعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام- تحقيق ليفي بروفنسال-دار المكشوف-بيروت- 1956م/1376هـ- ص313.----47- عبد الله العروي- مفهوم التاريخ- ج1 ص42.----48- ابن الخطيب- نفاضة الجراب- ص 63.----49-أحمد بن محمد المقري التلمساني-**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**-حققه محمد محيي الدين عبد الحميد-الجزء الثامن-مطبعة السعادة-مصر -الطبعة الأولى 1949م-ص.322.

50- ابن الخطيب- نفاضة الجراب- ص.11.----51- ابن خلدون-العبر-ج7-ص.4-الناصري-الاستقصا-ج4-ص.27.

52- عبد الله العروي-**مجمل تاريخ المغرب**-ج1-ص.13.----53- مولود عشاق، تاريخ المغرب وإشكالية المصادر، ص63.

54- ابن الخطيب-نفاضة الجراب-ص110.----55- المصدر نفسه- محقق **نفاضة الجراب**، ص7.----56 - المصدر نفسه--ص79.

57 - ابن خلدون، العبر- ج7- ص 440-591 .----58-المصدر نفسه - ص440.-----59-المقري-نفح الطيب-ج5-ص.357

60- عبد الحليم حسين الهروط، **موشحات** لسان الدين ابن الخطيب، ص21 .----61- ابن الخطيب- نفاضة الجراب، ص96-99.----62-ابن خلدون العبر- ج7- ص.408.----63- ابن خلدون - المقدمة - ص 650-.651

64عبد العزيز قلقيلة- خط سير الأدب العربي- دار الفكر العربي- القاهرة 1990م-ص466.----65-. ابن الخطيب-نفاضة الجراب-ص287.----66-المصدر نفسه، ص45.----67- المصدر نفسه، ص45.---- 68- ابن خلدون-العبر-ج7-ص300-.317

69 -ابن الخطيب -نفاضة الجراب-ص45.----70-المصدر نفسه- ص44.----71-المصدر نفسه- ص48.----72- عبد الواحد المراكشي-المعجب-صص122 إلى130.----73- بشير شحادة- أبو البقاء الرندي الشاعر والقاضي الأندلسي-المجلة الالكترونية-تاريخكم- 2020/09/10
www.taree5com.com/%D8%A3%D8%A8%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%82%D8%A7%

74 أحمد بن محمد المقري –نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب-تحقيق احسان عباس-بيروت دار صادر-1388هـ/1968م-ج**2**-ص425.----75-ابن الخطيب - نفاضة الجراب- ص51.----76-المصدر نفسه- ص52-53-54.----77-المصدر نفسه، ص297-----78- عبد الواحد المراكشي-المعجب-ص122-136-137-138-139----79 - ابن الخطيب - نفاضة الجراب- ص57 .----80- المصدر نفسه-ص57 .-----81 المصدر نفسه-ص84.----82-المصدر نفسه -ص.85-86.----83 موقع كتارا- تجمل "الشعر بخير البشر"- 15 سبتمبر 2018م.

www.katarapoet.com/ar/%D9%82%D8%B5%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D9%8A%D8%A7-%D8%B3.

84 - ابن الخطيب-نفاضة الجراب-ص182.----85- ابن الخطيب-نفاضة الجراب-ص189.----86-الناصري-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى-ج4ص9. -----87 مها روحي إبراهيم الخليلي، الحنين والغربة في الشعر الأندلسي عصر سيادة غرناطة 635-897 هجرية كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية في نابلس فلسطين، 2007م، ص116.----88-المرجع نفسه، ص.104.

مجلة عصور الجديدة- مجلة مصنفة ج يصدرها مختبر تاريخ الجزائر-
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1
المجلد12- العدد1 (ماي) 1443هـ/2022م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
DOI: 10.54240/2318-011-003
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

89-نقل المقري جزءا من هذه القصيدة في كتابه نفح الطيب(ج9، ص182-183)وقد قدم لها بقوله:قال لسان الدين رحمة الله تعالى :نظمتها للسلطان أسعده الله، وأنا بمدينة سلا لما انفصل طالبا حقه بالاندلس، سميتها "المنح الغريب في الفتح القريب" ابن الخطيب-نفاضة الجراب، أحالة رقم (3)، ص287.-----90- ابن الخطيب-نفاضة الجراب-ص269-297 .

91 - الناصري-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى-ج4-ص205.----92-ابن خلدون-كتاب العبر-ج7-ص332.

93- ابن الأحمر - نثير فوائد الجمان في نظم فحول الزمان - تحقيق:محمد رضوان الداية-القاهرة-دار الثقافة-1981م/1403هـ ص243.----94 - ابن الخطيب-نفاضة الجراب-ص72-170-312-320.---95 المصدر نفسه-ص58.----96-المصدر نفسه-ص374.

97-المصدر نفسه-ص58.----98-المصدر نفسه-ص346.----99-المصدر نفسه-ص352.----100-المصدر نفسه-ص70.

101 المصدر نفسه-ص79.----102- المصدر نفسه-ص328.----103 المصدر نفسه-ص62.----104 -المصدر نفسه-ص45.

105- الناصري- الاستقصا -ج4-ص16-نفاضة الجراب-ص380.

106- يعتبر موقع شالة الأثري من أهم المعالم الأثرية بالمغرب الأقصى، فشالة حاضرة فينيقية ورومانية وإسلامية.أكسبها موقعها استراتيجي على مصب نهر أبي رقراق في المحيط الأطلسي، قبالة مدينة سلا وبمحاذاة مدينة الرباط أهمية كبيرة على مر العصور_الدرة اليتيمة في وصف مدينة شالة الحديثة والقديمة لابن على الدكالي، 1868م/1945م، دراسة وتحقيق عبير فهد شدود، طبع وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2012، ص7.

107- ابن الخطيب - نفاضة الجراب - ص81.----108- ابن الخطيب-نفاضة الجراب-، ص.85-86.